رجال الدولة!...

تتبعت وأنا في القاهرة سيرة طائفة من رجال الدولة فيها، وقد وجدت أن أكثر هؤلاء الرجال غير مجردين مما نسميه:

القيمة الشخصية، فإذا ترك إسماعيل صدقي باشا رياسة الوزارة فلا تزول قيمته الشخصية بزوال الرياسة فإنه يصبح بعد هذه الرياسة أكبر رجال الاقتصاد في مصر، وإذا تخلى مكرم عبيد باشا عن الوزارة فإنه يصبح في الصف الأول من المحامين المبرزين، وإذا زهد هيكل باشا في الحكم فإنه يصبح في الطبقة الأولى من كتَّاب العرب. فليست الوزارة هي السر الوحيد في مقامهم في وطنهم وإنما لفضلهم الخاص سر في هذا المقام . وقد أفضى بي هذا التتبع إلى المقابلة بين دولة أكثر رجالها من أهل الفضل والعلم والأدب، وبين دولة إذا ترك رؤساؤها ووزراؤها الرياسات والوزارات فلا تجد لواحد منهم منزلة في فضل أو علم أو أدب. قابلت بين دولة لا يعلم رجالها بكتاب ظهر في موضوع يهمهم إلا أسرعوا إلى مطالعته والانتفاع به وبين دولة لا تجد في دار رجل من رجالها مكتبة، ولا نرى رجلاً من رجالها يطالع كتاباً أو يحدثك عن كتاب، وخرجت من هذه المقابلات بالنتيجة المؤلمة: ما هو مصير

هذه الدولة التي يتقلد رجالها عظائم الأمور، وليس لهم نصيب من فضل أو علم أو أدب، ما هو مصير الدولة التي ينشأ في ظلالها شباب متمتعون بأدوات الفن والفكر ورجالها لا صلة لهم بهذه الأدوات. لا شك في أن أكثر الثورات في العام إنما هي عاقبة قوتين متنازعتين، فالدولة التي يتقلب رجالها في أعطاف النعيم، والشعب فيها يموت من الجوع لا يطول أمرها، لأن هذا شعب لا يسكت عن الجوع طويلاً. والدولة التي يكره رجالها الفضل والعلم والأدب وينشأ في جوانبها شباب اجتمعت لهم أسباب هذا الفضل والعلم والأدب لا تمتد حياتها لأن الشباب المتعلم لا يصبر عن الدولة التي تكره العلم، فلا يبعد المسافات بين رجال الدولة وبين طبقات الشعب، إلا هذا التفاوت في المعنويات والماديات، فليس من الخير لرجال الدولة أن تخرج دراهمهم أعناقها والشعب يقتله الجوع، وليس من الخير لرجال الدولة أن يتبعثر الشباب المتعلم في الشوارع، ودولتهم تظهر العداوة للعلم والأدب والفضل. وقديماً فطن خلفاء العرب وملوكهم وأمراؤهم وعمالهم إلى منزلة الفكر والشعور والذوق في الدولة فما تهاونوا بتحصيل هذا كله، ولا أخلوا مجالسهم من رجال الفكر والشعور والذوق لأنهم علموا أن الدول التي تبنى على غير هذه المظاهر الرفيعة سريع زوالها واضمحلالها. وحديثاً نرى أن أكثر رجال الدولة في أوربة وأميركة هم من أكبر الكتّاب والخطباء والمفكرين أصحاب المؤلفات البارعة، وقد كنت قبل أن أدون هذا الخاطر أطالع كتاباً لواحد

منهم وإذا شاء القارئ أن يعرف قيمة صاحب هذا الكتاب فليقرأ هذه العبارة الواردة في المقدمة: «العلم! والعلم وحده هو الذي ينبغي له أن يخلق أمتنا الجديدة! ولكن العلم لا يخلق الأمة الجديدة إلا إذا كان رجال الدولة في هذه الأمة من أهل العلم، فإذا لم يكونوا من أهله عاشوا في الكره وماتوا في النسيان!».

الإسلام والعرب في اميركا

الأميركيون لا يعرفون العرب إلا عن طريق الإسلام
الغريب أن أحد الأمريكيين يعتبر الصلوات الخمس مضيعة للوقت..!

تغلب في أميركة كلمة الإسلام على كلمة العرب، معنى هذا الأميركان يعرفون العرب عن طريق الإسلام، ففي مؤتمر الثقافة الإسلامية في جامعة «برنستون» وفي جامعة «ستانفور» وفي بعض المجتمعات الخاصة، وفي سؤالات بعض الصحف كانت كلمة الإسلام ترد أكثر من كلمة العرب.

في جامعة «برنستون» بحثت الثقافة الإسلامية بجذافيرها في اليوم الأول بحث عن الأدب العربي في سوريا ومصر وغيرهما، أما في الأيام التالية فقد بحث عن تاريخ الإسلام وشريعة الإسلام وفلسفته وعلومه وغير ذلك، ومن جملة الأقوال التي ذكرت أن الإسلام لا يحث على العلم، ومعنى هذا أن العرب والمسلمين عامة ليس لهم روح علمية.

ولقد اضطررت بعد هذا الاعتقاد الراسخ إلى أن أجعل موضوع محاضرتي في «واشنطن» التحقيق العلمي في بعض كتب الجاحظ، فقد أحببت أن أضرب الأمثال الناطقة بدلاً من الاستشهاد بالنص المجرد، فالجاحظ إمام من أئمة الدين، وشعوره الديني مستفيض في كتبه وهو قوي، ومع هذا لم يمنعه دينه عن العلم وعن التبريز فيه، ولقد جرى في تحقيقه العلمي على أساليب جرى عليها من بعده أكابر الفلاسفة والعلماء في «أوربا»أذكر منهم «باكون» و «ديكارت» فقد جرب استعمال الحواس في تحقيقاته، ثم علم أن الحواس تخطىء فلجأ إلى الشك حتى يقوده إلى اليقين.

إن مثلاً كهذا جدير بأن يحمل الذين يعتقدون أن الإسلام عدو للعلم على أن يغيروا اعتقادهم في العرب والمسلمين، وعلى أن يعرفوا أن الإسلام يحث على العلم، وأن العرب غير بعيدين عن الروح العلمية.

وفي جامعة «ستانفور» سألوني هذا السؤال: هل يتبع الإسلام تطورات الحياة الحديثة، فبينت لجمهور المستمعين أن المسلمين من أول ظهور الإسلام حتى يومنا هذا تتبعوا تطورات الحياة كلها في أكثر مظاهرها: في أدبها وعلمها واجتماعها وسياستها وغير ذلك، فلم يجمدوا على مظهر واحد ولم يمنعهم إسلامهم عن مجاراة الحياة، وبقي الإسلام قوياً وبقي المسلمون مسلمين ولم أشأ أن أدخل في تفاصيل النصوص لأني رأيت أن ضرب الأمثال أقوى.

وفي مجتمع خاص في سان فرانسيسكو سألني أحد الأميركان هذا السؤال: ألا ترى أن خمس صلوات في النهار مضيعة للوقت؟

فقلت له: لا أرى ذلك، فإن الصلاة الأولى يصليها المسلم في داره في الصبح قبل أن يباشر أعماله، وصلاة الظهر يستطيع أن يصليها أيضاً في داره في وقت الغداء، وصلاة العصر يستطيع أن يجمعها إلى صلاة المغرب، وصلاة العشاء يصليها بعد العشاء ولا تستغرق كل صلاة أكثر من دقائق قليلة، فأين ضياع الوقت، قال: والحكومات ألا تضيع أوقات أعمالها في الصلوات، قلت له: إن الحكومات تداوم من الصباح إلى الساعة الواحدة أو الثانية، فأين ضياع الأعمال، فقنع بكلامي بحسب الظاهر والله أعلم بالبواطن.

وجاءني صحفي في مدينة من مدن «اريزونا» وسألني هذا السؤال: أترى أن الإسلام يساعد على نشر السلام في العالم، فقلت له أن الإسلام يقر حقوق المرء وواجباته، ومتى عرف الإنسان حقه وواجبه قلَّ التنازع في الناس، وإنما الخصومة تأتي من إنكار الإنسان لحق الإنسان، أو من مطالبة المرء لأخيه بواجب وهو نفسه يهمل واجبه، فإذا اعترف كل واحد منا بحق الآخر وإذا قام كل واحد منا بواجبه انتشر السلام، فالإسلام عنصر من أقوى العناصر في نشر السلام.

هذه السؤالات وأمثالها يسمعها الإنسان كثيراً في أميركة فالأمير كان كما قلت لا يعرفون العرب إلا عن طريق الإسلام، وقد يجوز

أن معرفتهم للإسلام شوهها لهم بعض المشوهين من غير الأميركان، وهم غير قليلين، فالواجب يقضي علينا بأن نعرِّف الأميركان حقائق مبادئ الإسلام بضرب أمثال محسوسة بذكر نصوص يكثر فيها الأخذ والرد، وعلى هذا الوجه قد نستطيع أن نغير آراءهم في العرب والمسلمين، وإذا نحن لم نغيرها، فإننا قد نعدلها وهذا غير قليل.

«سياتله»
ولاية واشنطن

يوسف العيسى
- ذكراه الثالثة -

لم تسنح لي ذكرى الأستاذ يوسف العيسى سنوحها في هذه الأيام، فقد انحدرت من مصيفي في أول هذا الشهر وكانت ذكراه ماثلة لذهني الصيف كله، كنا في حياته نجلس في بلودان في زاوية خاصة من زوايا المقهى، وكان رحمه الله يؤثر الأماكن البارزة المشرفة سواء أكان جلوسنا في المقاهي أم كان في الفنادق، كان يريد أن يرى الناس وأن يروه وكنت أريد أن أفر من الناس وأن يفروا مني، فكنا في هذا المعنى على تناقض تام، ولكني كنت أنقاد إلى رأيه في هذا الوجه وأغضي على أمور لا أرى لي فيها راحة ولا طمأنينة.

عادت هذه الأحلام إلى نفسي في خلال الصيف لأني فقدته من ثلاث سنين ففقدت المقهى الذي كنا ننتابه، وفقدت الأحاديث التي كنا نتساقطها وقبعت في مقهى القرية بين طائفة من أهلها أسمع أحاديثهم وهي كلام على العدان مرة وعلى الفدان مرة، أو على ذئب من الذئاب أو حية من الحيات أو دب من الأدباب، وقد كان هذا الكلام يسليني ويعزيني لأني لا أُتعب فيه فكراً ولا أُشغل

بـه عقـلاً، وإنمـا كـان يمـر مـن أذن ويخـرج مـن أذن فيمضـي الوقـت دون أن أشـعر بـه وظللـت ثـلاث سـنين بعـد وفـاة الأسـتاذ أُلازم هـذا المقهى لأنـني كنـت أشـعر إذا مـررت بـالمقهى الـذي كنـا نذهـب إليـه بـأني غريـب فيـه، غـير أن ذكـراه لم تفـارق ذهـني، فكنـت أتذكـر أحاديث الأستاذ يوسف العيسى في أفيائه، فقد كان يحب أن يسمع النـاس وأن يسـمعوه، وكـانت أحاديثنـا ضروبـاً كثـيرة ندخـل في السياسـة حينـاً، وفي الأدب حينـاً ونخـوض في الشـعر سـاعة، وفي النـوادر سـاعة، فكـان إذا سمـع شـعراً يعجبـه دونـه في دفـتره وأنتظـر فرصة الاستشهاد به ليطرف القـراء بنكتـة أو بحكمـة في مبـاءة النحـل، وكذلـك كـان إذا سمـع نـادرة مـن النـوادر فكـان صحفيـاً في طبعـه ونشـأته، طبعـه الله تعـالى علـى الصحافـة وخلقـه لهـذه الصناعـة، والصحافـة إذا لم كـن فيهـا كـل يـوم شـيء طريـف بـاخت فقـد كـان هـم الأستاذ يوسف العيسى أن يطلـع علـى القـراء بمبـاءة نحـل طريفـة، أو بمقـال طريـف، أو بتعليـق طريـف، وإنـي لأطـوي السـنين الثلاثـين الماضيـة فـأرجع بذهـني إلى أول نشـأة «ألـف بـاء» فـأتذكر القـراء المزدحمـين علـى قراءتهـا، وأتذكـر تحدثهـم بمقـال مـن مقالاتهـا أو بنـادرة من نوادرها، فقد كان صاحبها ذائبـاً في محبـة جريدتـه منقطعـاً إلى إتقانهـا، جـاهداً في تحسـينها ولم تفـتر همتـه في هـذه السـبيل إلا في أواخـر أيامـه إذا أعـرب لي عـن رغبتـه في تسـليمي جريدتـه، فكنـت أعتـذر وكـان يلـح حتى قضى الله أمـره.

عادت إلى ذهني في الصيف هذه الأمور كلها فقلت في نفسي: لو مد الله في حياة الأستاذ يوسف العيسى حتى يرى هذه الأيام فكيف يكون موقفه في أحداث حدثت وانقلابات وقعت، وسياسات عرضت وبلاد طارت، هل كان يرتبك في جريدته أم كان يحسن المصدر والمورد، وهل كان يجاري الزمن ويساير الأحوال وما هي مهمة الصحفي في مثل هذا الشأن.

لا شك في أن الأستاذ يوسف العيسى لو مد الله في حياته حتى يرى أيامنا هذه لاستطاع أن يخرج من كل مأزق، ويتملص من كل ورطة، فإن الصحفي الذي لا يذوب في حزب من الأحزاب، ولا يفنى في مبدأ من المبادئ يستطيع أن يساير السياسات والانقلابات والعهود، لأن جريدته مرآة اليوم الذي يعيش فيه فما يحدث في هذا اليوم ينعكس على جريدته، فمن الصحفيين من يعكس الأحداث على علاتها ومنهم من يعكس عليه خواطره.

والأستاذ يوسف العيسى خلقه الله للصحافة فابعده عن التمسك بسياسة خاصة حتى يكون له رأي في السياسات كلها، وأبعده عن التعلق بفكرة خاصة حتى يكون مطلقاً في الحكم على الأفكار كلها ولهذا كان صحفياً من الطراز الأول وإذا سموه شيخ الصحافة فلم يبالغوا في هذه التسمية

على بحيرة طبرية
أدب المتنبي وأدب لوتي

كان يجب عليَّ أن أجعل عنوان المقال: الطبيعة في أدب الإفرنجة، ولكني خفت عاقبة الدعوى، فلست أحاول في مقال وجيز مثل هذا المقال أن أستقصي أدب الإفرنجة، وأن أستخرج منه خصائص الطبيعة، وإنما أمر بكاتب من كتابهم، وأحبس ذهني على كتاب من كتبه، ولا أشير إلا إلى فصل من فصول هذا الكتاب.

أما الكاتب فهو «لوتي» وأما الكتاب فهو «الجليل» وأما الفصل فهو «بحيرة طبرية».

هذه مقدمتي كلها، ولكن ما الذي أخطر ببالي «لوتي» وكتابة «الجليل» وكلامه على بحيرة طبرية!

طبع الأمير شكيب أرسلان من أيام قليلة ديوانه، وفي هذا الديوان قصيدة في وقعة حطين المشهورة، وفي هذه القصيدة سعة في المعرفة، وعلو في الشعور.

غير أني لست في معرض الكلام على القصيدة فأنا أتمثل منها ببيت واحد

أجمد بقوم رأوا محاسنها يوماً فما أنشدوا ولا شعروا

الضمير في محاسنها يرجع إلى بحيرة طبرية، هل شعر الذين رأوا محاسنها أم لم يقولوا شيئاً من الشعر.

أحببت في أوائل الربيع الماضي أن أقضي أياماً في طبرية، فأخذت معي كتابين، ديوان المتنبي وكتاب «الجليل» لصاحبه «لوتي» ولكني لست أدري لماذا جمعت بينهما، فما هو ارتباط «لوتي» بالمتنبي، ولكن هذا الجمع قد نفعني ولم يضرني، فقد أوحى إليَّ أن أوازن بين ناحية من نواحي أدبنا، وبين ناحية من نواحي أدب الإفرنجة، أما هذه الناحية فهي الطبيعة في الأدبين، ولكن الموازنة لا أستقي فيها وإنما ألم بها إلماماً.

كنت في خلال إقامتي بطبرية أتنزه كل يوم على شواطئها، فأمتع النظر بماء طبرية وبسمائها وبشجرها وبجبالها، وكنت حديث العودة من «جنيف» فكنت أجمع ذهني وأقابل بين بحيرة طبرية وبحيرة جنيف، فكان يظهر لي أن الله قد اختص كل بقعة من بقاع الأرض بخصائص وطبعها بطابع، فسماء ضاحكة وسماء عابسة، وجبال موحشة وجبال أنيسة، وكنت. في هذه المقابلات أردد أبيات المتنبي في بحيرة طبرية لأرى هل أختص شعراؤنا طبيعة بلادنا بخصائصها، وهل طبعوها بطوابعها.

لولاك لم أترك البحيرة والغو ر دفيء ومأؤها شيم
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم

والطير فوق الحباب تحسبها	*فرسان بلق تخونها اللجم*
كأنها والرياح تضربها	*جيشاً وغى هازم ومنهزم*
كأنها في نهارها قمر	*حف به من جنانها ظلم*
تغنت الطير في جوانبها	*وجادت الأرض حولها ديم*
فهي كماوية مطوقة	*جرد عنها غشاءها الأدم*

كنت أردد هذه الأبيات لأعلم ما الذي استهوى أبا الطيب من بحيرة طبرية، هل كان يرى فيها ضحكتها أو عبوسها، ووحشتها أو أنسها، وضوضاءها أو هدؤها.

نظر أبو الطيب إلى الطبيعة، ولكن نظره تعلق بظواهره، فلم ينفذ إلى بواطنها فلم ير من هذه الطبيعة إلا غوراً دفيناً، وماء بارداً، ولم ير من هذا الماء إلا موجاً هادراً، ولم ير فوق هذا الموج إلا الطير والرياح، وإذا أغرق في قليل من الخيال، جعل البحيرة مرآة مطوقة؟

مر «لوتي» ببقاع الجليل من اثنتين وأربعين سنة، وما زال ينتقل من يافا إلى القدس، ومن القدس إلى نابلس، ومن نابلس إلى الناصرة حتى وصل إلى طبرية، فها أنا أصحبه في خروجه من الناصرة أو انحداره إلى طبرية لأعلم كيف نظر إلى الطبيعة.

رأى «لوتي» هذه النواحي كلها فرأى بقاعاً خالية صامتة، هادئة ولا هدوء الموت، كئيبة ولكن كآبتها لطيفة، ثم خرقت عينه شيئاً أبعد من الصمت والهدوء والكآبة، فرأى الدم الفرنسي الذي جرى

على تراب فلسطين أيام الصليبيين وأيام «نابليون».

من هنا طفقت أشعر باختلاف العبقريتين، عبقرية العرب وعبقرية الإفرنجة ينظر الإفرنجة إلى الطبيعة، ولكنهم لا يكتفون بظواهرها فهم يريدون أن ينفخوا فيها شيئاً من الروح، وما هذا الصمت، وما هذا الهدوء، وما هذه الكآبة التي رآها «لوتي» في الجليل، إلا نفخة من النفخات، فالطبيعة في أدبهم مثلها كمثل الأحياء فلها مزاج مثل أمزجتهم، فطوراً نراها جذلة، وطوراً نراها كئيبة، وحيناً تكون الكآبة شديدة، وحيناً تكون لطيفة، وهم لا يكتفون بظواهر الطبيعة ولكنهم يتغلغلون في بواطنها فيرون الدم الذي جرى على أرضها، ويرون الرفات الذي هدأ في ترابها، فالأرض في أدبهم جسم حي ولكن هذا يقدس في موضع التقديس، فالأرض التي فاض فيها دم الصليبيين ودم قواد «نابليون» الجسم أرض مقدسة في أدبهم.

نعم: الطبيعة في أدبهم مثل الأحياء، فطبيعة الجليل كئيبة، وكآبتها لا يفرحها رونق الأزاهير ولا موسيقى الطير، وهم يقدسون هذه الطبيعة تقديساً، وينعمون عليها بالحياة، فما انحدر «لوتي» من الناصرة ووقعت عينه على تلال «حطين» حتى نفخ في هذه التلال روحاً فخلق لها عيوناً لترى بها عظائم الماضي، وخلق لها آذاناً لتسمع بها دوي الماضي، فنرى في أدبه صلاح الدين ينقض على الصليبيين، فوق تلال حطين فيحصدهم حصداً في يوم من أيام

الصيف فتأتي على وقعة حطين سبعة قرون، ولكنك في أدب «لوتي» ترى صلاح الدين بعد هذه القرون السبعة في فسطاط عظيم يتلقى المغلوبين من الصليبيين وقد جهدهم العطش فيسقيهم شراباً مثلوجاً بثلج حرمون. ثم يذبحهم ذبحاً فيجري دمهم على الأرض، ويروي هذا الدم عشب الأرض حتى هدأة الليل.

يخلص «لوتي» من هذه الذكرى الأليمة فيرجع إلى الطبيعة فينفخ فيها روحه فقد أتت على تلال حطين سبعة قرون وهي جامدة صامتة لم يطأ عشبها إلا الرعاة وإلا أبناء السبيل.

ولكن فلننحدر مع «لوتي» من حطين إلى طبرية إن «لوتي» ما وقعت عينه على بحيرة طبرية حتى أحس بخوف الدنو منها وبانصرافه إلى فكرة دينية، أن هذه البقاع تخطر سيدنا عيسى ببال الإنسان، كما تخطر القبور الخرس موتاها بهذا البال.

فهنا شرع «لوتي» يخرج من ظواهر الطبيعة على بحيرة طبرية ليمعن في بواطنها شرع ينسى وجهها ليرى جوفها. والسيد المسيح أول خاطر يخطر ببال المرء على شواطئ البحيرة، فأين جماهير الناس التي كانت تستيقظ من نومها لتسمع مواعظ المسيح، لقد أحسنت الطبيعة الخضراء بتكفينها الأرض التي رأت تلك الجماهير.

ثم يترك هذه البواطن كلها، ويرجع إلى الظواهر. فينفخ فيها من روحه: فلا حركة في هذه البقاع، ولا ضوضاء، إنك لا تجد فيها إلا سلاماً يشبه سلام أهل الجنة وكأبتهم فالطير تغنى ويسمع

«لوتي» غناءها: ولكن هذا الغناء لا يلبث أن يضيع في صمت الطبيعة؛ تحت هذه الماء الشاحبة سماء التأمل والحلم، ففي هذه البقعة هدوء لا تستطيع الألفاظ أن تصوره، هدوء سماوي يستفيض في مهد النصرانية. حتى أن «لوتي» نفسه يضطر في مثل هذا السكون إلى تخفيف صوته من دون إرادة منه كأنه في معبد من المعابد!

إن ألفاظ الأمل وألفاظ المحبة التي سمعها البشر قديماً على بحيرة طبرية قد طارت في سماء ثانية. وشاعت في الأرض لتعزي البشر في أحقاب طويلة، فهي ألفاظ ميتة كما مات شاطئ هذه البحيرة، ولكن اللهفة عليها لم تمت فإنها خالدة في أعماق نفس «لوتي»، وطبرية على الرغم من كل شيء تبقى وطنه المقدس.

رأى «لوتي» في طبرية ما رآه المتنبي فقد رأى مرآتها المطوقة، وسمع غناء طيرها وتمتع من شميم زهرها، ولكنه رأى شيئاً أبعد من هذه الظواهر الجامدة فليس من السهل عليَّ أن ألخص في أسطر ما توسع فيه «لوتي» في صفحات أنه يقدس الطبيعة تقديساً ويحييها إحياءاً، فكأنك تشاهد من شاطئ البحيرة، جماعة الصيادين الذين كانوا يحيطون بالسيد المسيح ويسمعون رسالته، وكأنك تسمع السيد يتكلم على المحبة وعلى الرحمة وعلى الصفح فتسمع كلامه، كما سمعته القصبات الممتدة على الشاطئ، وكما سمعه صخر البحيرة.

فإذا نقص الطبيعة في أدبنا شيء فإنما تنقصها هذه الحياة حتى تصبح مثل الأحياء فتعيش عيشتهم وتشعر شعورهم، كما يعيش القصب في أدب «لوتي» وكما يعيش الصخر.

يعطون الحرية في باريس
ويأخذونها هنا!...

الأستاذ شفيق جبري شاعر الشام غير المنازع، وأديبها الفذ الذي استقل بحمل راية الأدب ودراسة تاريخه القديم والحديث، وصاحب المؤلفين العظيمين «المتنبي» و «الجاحظ»، رجل قليل الكلام قوي النفس، لا يتكلم إلا إذا طلب إليه الكلام، ولا يتحدث إلا إذا عرفت كيف تستثيره للحديث أو تحمله عليه. ولقد سافر شاعرنا الكبير إلى أوربا في الخريف الماضي، وكان ينشر في الزميلة «القبس» المعطلة الآن شيئاً عن رحلته هذه في مقالات يبعث بها إلى صاحبها صديقه الحميم الأستاذنجيب الريس، هي أقرب إلى خطرات نفس منها إلى دراسة أو بحث. ولما عطلت «القبس» وعادالأستاذ جبري إلى دمشق أمسك عن الكتابة لأنه لا يريد أن ينشر شيئاً في الصحف اليومة غير «القبس»، وأمس ظفرت به في إدارة الزميلة المذكورة فأحببت أن لا أضيع هذه الفرصة فطلبت من الأستاذ الكريم أن يحدث قراء «المعرض» عن رحلته وقد سألته هذا السؤال:

سيدي الأستاذ لقد زرت باريز ولندره وجنيف وطائفة من بلاد

إيطالية ووعدت أن تصف لنا في «القبس» الآثار التي بقيت في نفسك بعد هذه الزيارة، فهل لك أن تحدثنا عن باريز وعن لندرة وعن سويسرة وعن إيطالية، هل لك أن تصف لنا ما شاهدت في الغرب؟!

فابتسم شاعرنا الكبير وأطرق هنيهة ثم انطق يحدثنا بصوته الناعم الهادئ قائلاً:

لا يمكن أن ينتقل المرء فجأة من الشرق إلى الغرب دون أن يشاهد في انتقاله مشاهد شتى تترك في نفسه آثاراً بليغة، ولكن هذه الآثار تختلف باختلاف النفوس التي تشاهدها، لقد هيأت مقالات وجيزة، أو عَلَى تعبير أدق أحاديث بسيطة تفصح عما شعرت به في الغرب، ولكن لما رجعت إلى دمشق وجدت «القبس» معطلة فعطلت الأحاديث لأنها الجريدة الوحيدة التي تعودت أن أنشر فيها خواطري من زمن بعيد.

ماذا شاهدت في الغرب؟

هذا سؤال كثيراً ما سألوني إياه في دمشق ولكن الجواب عنه ليس بالسهل، فقد رايت أموراً مختلفة، وكل بلد من البلاد التي زرتها طبعت بطابع خاص فلا سبيل إلى الاجمال ولا بد من التفصيل، وهذا التفصيل سيكون موضوع مقالات متسلسلة يجمعها كتاب أو كتيب.

لم تعد باريز ولا لندرة ولا جنيف، ولا روما ولا البندقية ولا

فلورنسة ولا ميلانو من بلاد السندباد البحري، فإن دور السينما لم تخف علنيا شيئاً من أسرار هذه البلاد وإن الناس الذين زاروها ورجعوا عددهم كثير وإن الكتب التي ألفت فيها غير قليلة، فلم تعد أوربة بأجمعها سراً من الأسرار ولكن كل واحد منا يرى أوربة بعين تختلف عن عين صاحبه، وهذا الذي يجعل لوصف الذين يصفونها قيمة.

ومهما يكن الأمر فأستطيع أن أقول أني لا أعرف الدهشة في دخولي باريز، فقد كنت أتصورها في صورة ووجدتها في صورة أخرى، كنت أتصور أن أرى مدينة لا يحيط بها عقل من العقول، وإذا أنا في وهم، حتى أن هذا الجو المظلم الذي استقبلناه في دخولنا، وهذه المباني السود قد جعلت باريز ظلمة في عيني، ولم تنقلب هذه الظلمة إلى بعض الإشراق إلا لما وصلت إلى «الشان اليزة» وإلى «ساحة النجمة» وإلى بعض شوارع عظيمة، ومع هذا كله فلم أعرف الدهشة في باريز، فقد كنت في أيامي الأولى منقبضاً فيها كل الانقباض، ولكني لما عزمت على الخروج منها شعرت بشيء من الوحشة لأني يومئذ بدأت أحس بحياة باريز.

لا شك في أنك تريد أن تعرف ما هي هذه الحياة؟ لا يمكنني أن أصفها لك بحديث مثل هذا الحديث، فقبل أن أخرج من باريز بليلة كنت ساهراً في مقهى من مقاهي «سان ميشيل» وهو «الكوبول» فكان يمر من أمامي خلق لا يعلم عددهم إلا الله، وفي

هـذا الخلـق وجـوه مختلفـة بعضهـا شـرقي وأكثرهـا بـاريزي، فحيـاة بـاريز في هـذه الوجـوه الناعمـة الـتي تزدحـم في المسـاء «سـان ميشـيل» أو في «الشـان الـيزة» أو في غيرهمـا مـن الشـوارع الكبـيرة. المـرأة في بـاريز هـي حيـاة بـاريز، وهـي قريبـة منـك تجدهـا قدامـك ووراءك وعلى يمينك وعلى يسارك، وهـذا شيء لا تجد مثلـه في أوربـه.

ولكنـك تقـول لي: أهـذا الـذي لفـت نظـرك في بـاريز؟

كلا! إن في بـاريز شيئاً أجمـل مـن المـرأة وهـو حريـة الـرأي والتعلـق بـالوطن.

إنـك تسـتطيع في بـاريز أن تعـرب عـن رأيـك دون أن تخشـى صولـة أحـد، فالحريـة فيهـا شيء مقـدس، إنـك لتسـتطيع أن تهـزأ في جريدتـك بـأعظم شـخص سياسـي، وإنـك لتسـتطيع أن تهـزأ بـه علـى المسـرح وعلـى الطـرق وهـذا مـا حبَّـب إليّ بـاريز فـإني أتمنـى في سـورية أن يأخذوا منـا كـل شـيء وأن يـتركوا لنـا حريـة الـرأي وحدهـا وحينئـذ يرون بـأعينهم كـم تعيـش هـذه التمـاثيل الفارغـة الـتي ينصبونهـا مـن فترة إلى فـترة!

ولكـن حريـة الـرأي لم تكـن الشـيء المقـدس وحدهـا، فـإلى جنبهـا التعلق بـالوطن، وهـذا شـيء يكـاد يكـون مفقـوداً ببلادنـا، إننـا نحـب وطننا ولكننـا لا نعـرف كيـف نحبـه، وهـذا هـو الفـرق بيننـا وبينهـم، أتريـد أن تعـرف كيـف يحبـون وطنهـم، إنهـم يقدسـونه تقديسـاً، ففـي ليلة من الليـالي سـهرت في أحـد الملاهـي، فكـانت منـاظر هـذا الملهـى

من أولها إلى آخرها درساً في تحبيب الوطن، فالراعي على المسرح يتغنى بغنمه وبالجبل الذي ترعى فيه هذه الغنم، والقروي يتغنى بالشجرات التي يغرسها على شواطئ الماء أو في السهل، وابن الجنوب تغنى بلهجتها الشاذة التي تختلف عن لهجة ابن الشمال، وابن باريز يتغنى بحياة باريز الضاحكة، فالمناظر كلها كما قلت لك كانت درساً في الوطنية.

وعلى الرغم من هذا كله كنت منقبضاً في باريز، لأني قابلت بين اعطائهم الحرية فيها وبين أخذهم الحرية في سورية، وقابلت بين حبهم للذي يتعلق بوطنه عندهم، وبين كرههم للذي يتعلق بوطنه عندنا، فخرجت من هذه المقابلات كلها بشيء من الوحشة ومن الانقباض، وعرفت أن للسياسة وجهين: وجه أبيض ناصع في باريز نفسها، ووجه أسود مظلم في البلاد التي بسطت باريز عليها ظلها، وهذا ما جعل في قلوبنا شيئاً من النفرة، فسيطول عهد هذه النفرة إلى أن يكون لهم وجه أبيض ناصع واحد في باريز نفسها وفي خارج باريز.

هذا أقل ما يمكنني أن أجمله لك عن حديث باريز، أما لندره فقد كتبت عنها ثلاث عشرة مقالة لا أزال أحتفظ بها، وإذا تمكنت من نشرها فإنك تستطيع أن تدرك عظمة الانكليز في أخلاقهم وكرمهم وثقافتهم المبنية على الطبيعة وربما حدثتك عنها إذا اتسع المجال!...

إلى هنا انتهى حديث حضرة شاعر الشام الأستاذ شفيق بك جبري عن مشاهداته في باريز وربما تمكنت من أخذ حديث منه عن مشاهداته في لندره. حتى إذا استنجزته بالوعد وتمكنت من نقل حديثه أرسلته إلى «المعرض» الأغر في الأسبوع المقبل وشاعر الشام كما عهدناه كريم لا يبخل على القراء بمثل هذه الأحاديث القيمة اللذيذة!

دمشق

«فائق..»

بلا عنوان

هل نحن شيء في هذا العالم؟

لا يحسبن القارئ أن هذا المقال موضوع فيه شيء من الانسجام، وإنما هو خاطر خطر بالبال وأنا أطالع جريدة «باريز» فقيدته دون حاشية ولا ذيل، حتى ولا تعريض، وأحببت أن يكون فوضى شبه حياتنا حتى لا يظهر عليه أثر كلفة فجعلته بلا عنوان، فكلما قرأت صفحة من جرائد «باريز» لا بل كلما قرأت عبارة من هذه الجرائد وقف الذهن على هذه الصفحة أو على هذه العبارة وأخذ يسرح في آفاق مديدة من التفكير، فقد يعتريني شيء من الدهشة لا أجد إلى التعبير عنه سبيلاً، ففي كل صفحة وفي كل عبارة عبرة لنا في أي وضع من أوضاع الحياة، في السياسة، والاجتماع والأخلاق على اختلافها، في الخلق الوطني والخلق القومي، وفي الحياة نفسها، في لهوها ومرحها وانبساطها، وخاصة في هذا الصيف الذي يزدحم فيه الرجال والنساء على السواحل، فلا تجد إلا أجساماً ناعمة تستقبل الشمس وتستدبرها، منبسطة على رمال كأنها خيوط حرير، وهي مجردة معراة!

بعد كل وضع من هذه الأوضاع أترك القراءة دقيقة وأقول في

نفسي: هل نعيش، هل نستحق أن نعيش، هل نعرف الحياة، هل نذوقها في كل مذهب من مذاهبها، في سياستها واجتماعها وأخلاقها ولهوها ومرحها وانبساطها وما شاكل هذا كله.

كلا، ثم كلا، إننا لا نعيش وإنما على لغة «الحريري» ندرج الأيام أدراجاً، وعلى لغة الفرنسيين نعيش في الخمول والظلمة والضيق وقلة المبالاة بالأشياء أي ننبت الحياة نباتاً كما يقولون، وإذا ذهبت إلى الموازنة بين آفاق حياتنا وبين آفاق حياتهم في الغرب، خرجت من هذه الموازنة وليس في نفسي إلا أثر واحد وهو أننا لا شيء في هذا العالم!

إني أكبح جماح القلم بعد هذه المقدمة اليسيرة وأرجع إلى موضوعي، وما هو موضوع كما قلت وإنما أرجع إلى الخاطر الذي مر بالبال وأنا أطالع خطبة رئيس جمهورية فرنسة في «اللورين» وقد قيدت هذه الخاطر دون شيء من الفلسفة، لقد قلت: إننا لا شيء في هذا العالم، فلننظر إلى ناحية من نواحي تفكير رئيس جمهورية فرنسة حتى يتبين لنا نمط من أنماط حياتهم السياسية، وخلق من أخلاق الرجل الأول في فرنسة، بأي شيء يهتم هؤلاء الرؤساء، وإلى أي شيء ينصرفون، في أي شيء يفكر كل واحد منهم بعد أن ارتفع إلى أعلى منزلة، فكل واحد منهم قادر على أن لا يكون شيئاً، غير أن وطنهم يحملهم على أن يكونوا كل شيء، إن الوطن يحملهم على التفكير في خيره، والشعور بصلاحه، فقد وقفوا عليه

فكرهم وشعورهم، ولم يكونوا فيه بلا فكر ولا شعور.

نصبوا في هذه الأيام تمثالا في مدينة «شارم» على سبيل الذكرى، وأي ذكرى، ذكرى ظفر جيش فرنسة في «اللورين» رجوع «اللورين» إلى فرنسة. إن المقام يضيق دون وصف التفاصيل وحسبنا أن نعرف أن رئيس جمهورية فرنسة خطب خطبة في الحفلة، دلت على مقدار اهتزازه للمعركة التي ظفر فيها جيش فرنسة في الحرب الكبرى، وعلى مبلغ شكره للذين باعوا أنفسهم في الدفاع عن «اللورين» في هذا الشكر تقدير للواجب يهون على كل فرنسي القيام بهذا الواجب مهما يصعب.

كان في استطاعة الرئيس أن يقتصر على هذا الشكر، وعلى هذا التقدير ولكنه لم يشأ أن يغادر مكان الحفلة من دون أن يعد الوعد الصادق أن يخلص لهذه البقعة من الأرض التي سموها «اللورين» وبعد هذا الوعد برزت عاطفته الوطنية، فبين للجمهور ما تصير إليه فرنسة إذا وقع الشقاق في أحزابها كما جرى في الشتاء الماضي، فإن ضياءها ينقلب ظلاماً، وإن قوتها تنقلب ضعفاً في العالم، ولكن أحزابها إذا التفت أهوائهم، وجعلوا مصلحة الوطن نصب أعينهم، فحرصوا على أفكار هذا الوطن وعلى عواطفه وعلى مطامحه علت سمعة فرنسة، واشتد سلطانها وسمعت كلمتها.

وقبل أن يغادر المكان طلب إلى الناس أن يصغوا إلى الأصوات المرتفعة من بطن الأرض، أي أصوات الجند الذين دافعوا عن

«اللوريـن» وأن ينصرفـوا وقلوبهـم سـامية ونفوسـهم قويـة في القيـام بـالواجب.

كـان يجـب علـيَّ أن لا أغفـل كلمـة مـن هـذه الخطبـة لأن بلاغتهـا قـد تضيـع في اختصارهـا علـى هـذا الوجـه، ولكـني أرى أن الاشـارة إلى معانيهـا كافيـة، فليسـت العـبرة في الخطبـة نفسـها، وإنمـا العـبرة في روح صاحبهـا وفي عاطفتـه، فقـد تـرك مصيفـه حيـث يـذوق راحـة الفكـر بعـد عنـاء العمـل وجـاء يحـرض على التفـاف الأهـواء ويحـذر مـن فرقـة الكلمـة، ويبـين أن حيـاة فرنسـة بوحدتهـا وقوتهـا، ويتغنـى بهـذا الـدم الـذي فـاض في تحريـر «اللوريـن» ويقسـم يمـين الاخـلاص لهـذه البقعـة المكرمـة عندهـم.

هـذه حيـاتهم، هـذه خطبهـم، هـذه عواطفهـم، فهـل نحـن شـيء في هـذا العـالم!

القبس
بلودان

لبنان.. كما يراه شفيق جبري

أفتريد أن تجمع محاسن لبنان في بقعة واحدة منه؟ هذا نوع من الظلم، فإن لكل غور من أغواره، ولكل نجد من أنجاده معنى خاصاً. أفلا ترى أن للطبيعة حياة تحياها هذه الطبيعة، فمرة تملأ الكآبة كل غابة من غابها، ومرة يغمر الحبور كل سهل من سهولها، ففي بقعة منها تجد الوحشة وفي بقعة تجد الأنس، وفي ناحية ترى الجبروت والعظمة، وفي ناحية ترى الوداعة. أفتريد أن يكون مرأى البحر وأنت تطل عليه من نجد من أنجاد بيت مري مثل مرأى الوادي وأنت تقطع ضفة هذا الوادي من بشري إلى الأرز؟

لا تسألني عن أحسن مصيف في لبنان ولكن اسألني عن محاسن هذه المصايف بمجامعها، فلقد كتب لي أن أذوقها من خمس وعشرين سنة، فلست أنسى ضوضاء عاليه، ولا هدوء صوفر ولا أنس بحمدون ولا وحشة عين زحلتا والصفا، ولا ضحك وادي حمانا وقراه المنثورة على جانبيه، ولا وداعة بيت مري وأختها برمانا، ولا فتنة الصنوبر في ضهور الشوير، ولا جبروت الأرز، فإذا أردت أن تحسن إلى لبنان فإياك أن تطرح هذا التباغض في قراه،

فلكل قرية روحها ولحمها ودمها، فاختر من هذه القرى ما يناسب مزاجك، واجعل بينك وبين القرية التي تختارها شيئاً من الصلة فإنها لتستطيع أن تدخل الفرح على قلبك إذا كان هذا القلب قد ملأته الكآبة، وإنها لتستطيع أن تذيقك لذة الهدوء إذا كنت قد تعبت من الضوضاء، وإنها لتستطيع أن تُضحك روحك إذا كانت هذه الروح قد همها شيء من البكاء، فأصل الأمر في هذا كله أن تهتدي إلى أسرار الطبيعة، وأن تنعم بعد اهتدائك إليها بلذة العين والأذن والأنف والقلب، وهذه الحياة كلها، حياة الطبيعة، هذه الحياة التي عرفها «روسو» وإخوانه في الغرب والبحتري وإخوانه في الشرق، وإذا كنت ترغب في تعريف للوطنية على النحو الذي أفهمه فوطنية لبنان في نظري أن يحنو كل رجل من رجاله على أرضه وسمائه، وأن يتغنى بكل جزء من أجزائه الفاتنة، هذه الوطنية الصادقة الهادئة التي لا تجد فيها أثراً من الكذب والكلفة، ومن لا يشعر بمحبة وطنه العربي الأصغر فإنه لا يستطيع أن يشعر بمحبة وطنه العربي الأكبر!

حديث الملايين

حديث الملايين يجري في هذه الأيام على ألسنة الناس عامة، فقد جلست في الأسبوع الماضي ثلاثة مجالس مختلفة، فما خلا منها من حديث الملايين.

جلس إليَّ في المقهى الذي تعودت أن أنتابه في المساء لأخلو إلى نفسي، صديق من الاصدقاء الطيبين، قال أُعكر صفاءك إذا جالستك لأسليك، فقلت له: يا سيدي! المعكرات كثيرة، أهلاً وسهلاً، فما كاد يستقر به المقام حتى اندفع في حديث الملايين اندفاع السيل، فمن كلامه: هذا بنى بناء وما كان معه شيء، فهو يكسب من بنائه كذا وكذا في السنة.. وهذا اشترى أرضاً في الغوطة بأبخس الأثمان، فهي تعطيه كذا وكذا في السنة.. وهذا اشترى أرضاً من الأوقاف فباع من خشبها ما يعدل ثمن الارض، فمضت ساعتان على هذا الحديث ونحوه، وصديقي جاءني حفظه الله ليسليني!

ثم انتقلت من المقهى إلى مجلس آخر أقصد إليه كل يوم فأفاض صديق عزيز عليَّ في حديث الملايين ولكنه بدلاً من أن يتكلم على ناس من دمشق تكلم على جماعة من بيروت، وكلهم لم يكن معهم

شيء فأصبحوا أغنياء من لا شيء.

وفي اليوم الثاني جلست إلى طائفة من إخواني الأساتذة فكان أكثرهم يقول: لو قدر لواحد منا أن يبيع الحمص في هذا الزمن لأصبح غنياً، فإنا نجهد أنفسنا ونتعب عقولنا ثم لا نكاد نحصل في آخر الشهر على ما نسد به رمقنا.

وفي اليوم الثالث خرجت إلى القرية التي تعودت أن أقضي فيها آخر الأسبوع، فدخلت المقهى على عادتي فوجدت الناس يذكرون الموت، وقد كانت العادة في مثل هذا الشهر أن يذكروا الأعراس لأن أهل القرية فيحتفلون بأعراسهم، إلا أن الشتاء هجم هذه السنة بالموت فقد مات عندهم سبعة فتأخرت الأعراس بسبب هذا الموت، والذي شهدته أن الناس على الرغم من بدء شتائهم بالجنائز كانوا يضحكون ويمزحون ويفتشون عن نادرة من النوادر، فقد خلقوا لأنفسهم أفقاً بعيداً عن الملايين، وعاشوا فيه، والله يعلم نوع غذائهم في الغداء والعشاء، ولقد حضرت عشاء في بيت من البيوت، فتحلق على السفرة أهل البيت، الأم والبنت، وخمسة شبان، فوالله ما كلف عشاؤهم أكثر من ربع لية سورية، كان العشاء ما يسمونه: التبولة، وهي عبارة عن مقدار من البقدونس والبصل والبرغل، ما عدا الخبز.

هذه صور شتى ازدحمت على خاطري في الأسبوع الماضي، لقد أصبحنا في عصر لا قيمة فيه إلا للملايين، فكل شيء يقاس فيه

بالملايين، حتى العلم والفلسفة وما شاكلهما، فقد قرأت في مجلة أمريكية مقالاً في الفلسة ولما وصل صاحب المقال إلى منتهاه قال: لقد طبق هذا المذهب الفلسفي فلان من أصحاب المعامل في معمله فربح كثيراً.

حقاً إن الحياة أصبحت ثقيلة على الناس، فقد كثرت تكاليفها واشتدت مطالبها وغلت أسعار حاجاتها وأصبح الإنسان الذي يستطيع أن يقوم بسد حاجاته هو الغني، هذه حقيقة لا يمكن أن ننكرها أو أن نكابر فيها، ولما انصرفنا إلى الأدب والعلم والفلسفة وغير ذلك من صناعات العقل لم يخطر ببال واحد منا أن الحياة ستكون في يوم من الأيام على مثل هذه الشدة، ولو خطر نظير هذا الخاطر لانصرف أكثرنا إلى التجارة أو الزراعة أو الصناعة وأضرابها ولكن ما العمل؟ فقد فاجأتنا تكاليف الحياة ولا قبل لنا بتغيير صناعاتنا ولهذا أكثرنا يشتهي الفرج.

ولكن على الرغم من هذا الأفق المادي الذي يتقلب فيه العالم أفلا نستطيع أن نخلق لأنفسنا أفقاً روحانياً نعيش فيه كما كان يفعل «دوستويفسكي» في سجنه، أفلا نستطيع أن نعيش في عالم الروحانيات ولو ساعة من الزمن، فنذوق لذة الفكر فإن حديث الملايين تنخر منه عظامنا وتهرم أبداننا، وتتعب أذهاننا، فقد يمكننا أن نبعد بعض البعد عن هذه الحضارة التي جاءتنا بمصائبها وفوائدها على السواء، يمكننا أن نعيش ولو طرفة عين عيشة أولئك

الفلاحين الذين يضحكون ويمزحون ونصب أعينهم الجنائز!

يمكننا أن نقتدي بهم في جزء من حياتنا فإني أظن أنهم أعقل منا في مثل هذه الحال!

عتاب كريم...
إلى أحد محرري مجلة «الدنيا»

في العدد الأسبق نشرت «الدنيا» رسالة مفتوحة تعتب فيها على أديب سورية وشاعرها الكبير الأستاذ شفيق جبري لطول صمته وسكوته. وقد اطلع أديبنا الكبير على الرسالة المفتوحة، وأدرك الدافع النبيل إليها فبعث إلينا بهذا «العتاب الكريم» الذي ننشره شاكرين، راجين أن يستأنف أديبنا الكبير نشاطه ويرسل ألحانه وأشعاره.

لما قرأت عتابك الأخير في «الرسائل المفتوحة» خطر ببالي قول المتنبي.

هذا عتابك إلا أنه مقة!

حقاً إن عتابك كان كله محبة وإخلاصاً لقد أوتيت شيئاً من البراعة في استثارة القرائح وتحريك الهمم، وأكبر دليل على ذلك أنك حركت همتي للجواب في أيام قتلنا حرها. لم يطل سكوتي، ولكني أعالج في كلية الآداب موضوعاً يصرفني عن الكلام، إني أنفض كتاب الأغاني نفضاً حتى أستخرج منه ما يشتمل عليه من

آفاق الحياة في كل باب من أبوابها في اجتماعها وثقافتها وسياستها وحريتها وضغطها وتبذيرها وغير ذلك، ولو اطرد التدريس في جامعتنا في عامنا المنصرم لكان كتابي الحديث قيد الطبع في هذا الصيف. وآمل أن أطبعه في الصيف القادم وأدفعه إلى الجمهور فيسقط حقي حينئذ في رأيي فيه ويبقى هذا الرأي من حق الجمهور وحده.

ولكن على الرغم من الاشتغال بكتاب الأغاني لم اقطع الصلة بالذي سميته في عتابك التيارات السياسية، والشاعر الذي يقطع صلته بحياة البشر مقصر في واجبه، لأنه لسان نفسه و لسان أمته ولسان البشرية بحذافيرها فإذا أهمل الافصاح عما يختلج في قلبه وقلوب أمته والبشرية،لم يقم بما يجب عليه.إني لم أقطع صلتي بالمصيبة العظمى التي أصابتنا في هذا الدهر وأعني بها مصيبة فلسطين، ولما فاجأتنا مسألة فلسطين كانت الآمال متقدة في قلوبنا، آمال الظفر والتضافر وفي غمرة هذا الاتقاد ألهمني الله شيئاً من الشعر صورت به على قدر الإمكان جهاد الشام ونكبة الأندلس في تخاذلها وظفر فلسطين في تناصر العرب وتضافرهم.

وقد بت أنتظر يوماً مشهوداً أنشد فيه ما هيأته ولكن سرعان ما خابت الآمال فقد صار الظفر إلى الانكسار، وتناصر العرب إلى التخاذل، فلما عدت إلى القصيدة التي أعددتها ونظرت في أبياتها خجلت من نفسي، وضحكت على حالي، وقلت أي ظفر تصوره

وأي تناصر تعنيه في شعرك!

لقد خجلت من نفسي لما قرأت في هذه القصيدة الأبيات التالية:

وإذا القدس سيم خطة خسف — كانت العرب درعه والمجنا

ايعبث اليهود في حرم القدس — والنوم يأخذ منا؟

ضجرت منهم الشياطين والأنـ — س فأنى نحنو عليهم أنى؟

احصدوهم حصد السنابل حتى — لا تروا من صهيون عبداً وقنا

لو تمور السماء والأرض ما دا — نت فلسطين عنوة أو دنا

أربع لو تطيق رجع بيان — لتعالى البيان فيها ورنا

فكأن الجبال تقذف حقداً — وكأن البحار ترسل ضفنا

وأظن أنك ستخجل من نفسك لما تقرأ هذه الأبيات.

لقد سيم القدس خطة خسف ولم نتحرك، وعاث اليهود في ظلاله فساداً ولم نبال، ومارت السماء والأرض، ودانت فلسطين وتعالى البيان فيها فلم نسمع، وقذفت جبالها حقداً فلم نلتفت في حال مثل هذه الحال. طويت شعري وطويت نفسي معه وأصبحت جماداً كلما أصبح كل شيء إلى جنبي جماداً.

الآداب

علك بعلك

هذا ما قاله ذو مقام كبير

تأتيني من حين إلى آخر مجلات شتى بلا بدل، منها ما يأتي من الاتحاد السوفيتي، ومنها من جمهورية ألمانية الديمقراطية، ومنها من رومانية، والخلاصة أن هذه المجالات صادرة عن بلاد تعنى في عصرنا هذا بالعلوم والصناعات.

إلا أن هذه البلاد التي صرفت عنايتها إلى العلوم وإلى الصناعات، لم تزهد في الأدب، ولم تحقر مكانته في العالم، فهي لا تعتقد أن الآداب أصبحت «علكاً بعلك» كما هو رأي ذي مقام كبير قذف به صاحبه في أعظم مجلس علمي في جمهوريتنا المحروسة، إن هذه البلاد تهتم بالآداب اهتمامها بالعلوم والصناعات فالجمهورية الألمانية التي توزع مجلتها الصناعية وفيها ما يحير العقول توزع في الوقت نفسه مجلة فنية من ألطف المجلات، طالعت هذه المجلة من أسبوع، من جملة المقالات مقال يتصل بالمسرح، على مقربة من محطة مدينة صغيرة في ألمانية «نوسترليتز» مسرح سمي

باسم شاعر ألماني مات من سنين وهو «فريدريك ولف» قيد نظري في وصف هذا المسرح قول الكاتب: لقد دهشنا لما علمنا أنه على الرغم من قلة عدد السكان في هذه المدينة فإن المسرح يغص بالناس كل مساء فالسيارات الكبيرة تتوجه كل يوم من نواحي المقاطعة نحو «نوسترليتز» وهي تقطع مائة كيلو متر أو أكثر حاملة عمالاً وفلاحين جاؤا يذوقون مسرات المسرح!

يقطعون كل يوم مائة كيلو متر ليشهدوا رواية في مسرح صغير، من هي هذه الطبقة؟ عمال وفلاحون أي طبقة اتصالها بالعلوم والصناعات أشد من اتصالها بالآداب، وأظن أن المسرح يدخل في الآداب لا في العلوم، ومع هذا لم يعتقد هؤلاء العمال وهؤلاء الفلاحون أن الآداب «علك بعلك».

فرغت من هذه المجلة فانصرفت إلى مجلة ثانية وهي مجلة الأدب السوفيتي فوقعت على مقال فيه تعريف برواية من الروايات صاحبتها: «الكسندرا بروستر»، لا أريد أن أزعج القارئ بتلخيص هذه الرواية فهي عبارة عن ذكريات طفولة الكاتبة، إنما لا أجد لي بداً من نقل سطرين في آخر التعريف، قالت صاحبة المقال:

«لقد أحببت هذا الكتاب، إنه من الكتب التي تناضل من أجل سعادة البشرية ومقامها ومن أجل السلم والحرية والعمل».

أظن أن الرواية داخلة في الأدب، وأظن أن الأدب الذي تكون من نتائجه سعادة البشرية وعلو مقامها واستفاضة السلم والحرية

والعمل لا يكون «علكاً بعلك».

وما استشهدت بالأمم التي انتشرت فيها الاشتراكية أو الشيوعية إلا لأن الذين يجري ذكر هذه الأمم على أطراف ألسنتهم لا يحون من العشق إلا قولهم: أوحشتني، فهم لا يعلمون أن هذه الأمم لم تنتشر فيها العلوم والصناعات وحدها، وإنما انتشرت فيها الآداب أيضاً، ولو أردت أن أستشهد بآراء الأمم اللاتينية والإنكليز والأميركان في الآداب لوجدت مجال الاستشهاد ذا سعة لا تستطيع البشرية أن تقتصر على العيشة في أفاق العلوم والصناعات وحدها، إن في البشرية ذوقاً وحساً وشعوراً، والآداب هي التي تلطف هذا الذوق وهذا الحس وهذا الشعور، ولولا هذا التلطيف لما كان فرق بين الإنسان وبين الحيوان.

موسم الكلام

كثرت الخطب في هذا الشهر حتى أصبحنا نستطيع أن نسمي الموسم: موسم الكلام، بالأمس حفلة قناة السويس وحفلة الجزائر، واليوم مؤتمر الأدباء وغداً مؤتمر المجامع العلمية، لا بأس بهذا كله، فقد نحتاج من حين إلى آخر إلى ترويض أقلامنا وألسنتنا على يسير من البيان حتى لا ننسى ما تعلمناه في صغرنا من قواعد هذا البيان.

ولكن البأس كل البأس بهذا التزويق الذي نرمي إليه في خطبنا وهي في غنى عنه، فلم يغفل أصحابها عن تنميق خطبهم على شكل يضمنون به لأنفسهم تصفيق الجماهير، فكأنهم نسوا أن الموضوع الذي يعالجونه تقوم بلاغته على بساطته وصدقه، فإن قضية فلسطين لا تحتاج إلى بلاغة، وثورة الجزائر في غنى عن الصور الشعرية، وحقوق مصر في قناة السويس في مندوحة عن الاستعارات والتشبيهات، فهذه الموضوعات كلها بليغة بذاتها وقد كنا نستطيع ونحن ننشئ خطبنا أن نقتبس بلاغتنا عن بلاغة بلاد مسلوبة وبقاع ثائرة وحقوق مثلومة ولكنا نسينا هذا كله، فقد كان معظم همنا في الخطب التي نمقناها أن يصفق لنا الجماهير أن تطبل الصحف لنا وتزمر، كان معظم همنا بعد أن فرغنا من

خطبنا أن نسأل الناس: كيف كانت هذه الخطب، وأن نسمع منهم هذه الجوابات كانت موفقة، وكانت آية في البلاغة، فكأن الغاية التي نذهب إليها في حفلات مثل هذه الحفلات أن نتبارى في استمالة الجماهير إلينا حتى نضمن لأنفسنا نيابة في المستقبل وما تجر إليه النيابة من وزارة أو رياسة وزارة، أما الموضوع نفسه، موضوع فلسطين أو موضوع الجزائر أو موضوع القناة فلم نهتم به مقدار اهتمامنا بلفت الأنظار إلينا، وما علينا بعد ذلك أن نكون متصنعين في شعورنا وعاطفتنا.

لا ريب في أن الموضوعات التي تصدينا لها في حفلاتنا جليلة القدر فإن ما نكب به العرب في هذه الأيام يشبه ما نكبوا به في أيام الصليبيين وضياع الأندلس، ولكن جلالة قدر الموضوعات مفتقرة قبل كل شيء إلى بساطة في التعبير، وصدق في الشعور سواء أصفقت لنا الجماهير أم لم يصفقوا، لقد أصبحنا في حاجة إلى أن نسمي الأشياء بأسمائها دون الاهتمام بالتطبيل والتزمير والمؤلم في هذا كله أن يكون هدف بعضنا في حفلات موضوعها دموع منحدرة، ودماء متفجرة وسيادات مثلومة، اضحاك الجماهير على حساب هذه الدموع وهذه الدماء وهذه السيادات.

إنا على الرغم من تقدم عصورنا ما نزال عيالاً على رعيلنا الأول في الأدب ونزاهة الشعور وإن كنا في كثير من الأحيان نسخر من هذا الرعيل ونتهكم عليه، إنا ما نزال نفتقر إلى بساطة

الأولين وإخلاص قلوبهم، فقد قَدِم الحجاز ابن الزبير ليبشر المسلمين بفتح افريقية فقص على الخليفة نبأ هذا الفتح فحشد له الخليفة الناس في المسجد وسألهم الاستماع إلى ابن الزبير فقام ابن الزبير خطيباً فلم يشتط في تعبير أو تصوير، وإنما كانت بلاغته مستمدة من بلاغة الموضوع الذي قدم به، ومظهر من مظاهر هذه البلاغة قوله: فبتنا وباتوا، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم، وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل.

هذه الصورة وحدها توضح لنا إخلاص المسلمين في جهادهم وتبين لنا بلاغة الخطيب في توضيح هذا الاخلاص فلم يفكر في التفات الناس إليه وتفكيره في التفاتهم إلى الموضوع فقد صور الأمور على حقائقها وكان إهتمامه بهذه الأمور أشد من إهتمامه بنفسه.

الأيام
٢٧ / أيلول / ١٩٥٦

سياسة الكتاب

قد يكون هذا العنوان غير مألوف في الصحافة اليومية، فإن القارىء يهمه أن يحدثه الكاتب بسياسة الرغيف أو بسياسة الصادر والوارد أو بأمثالهما، على أن الحالة العقلية في عهدنا الحديث تختلف عما كانت عليه في العهد القديم، لقد ألفنا في خلال ست وعشرون سنة أساليب التهديم، وهي التي نجتنا من انتداب ثقيل ظله، وأساليب التهديم لم تكن في حاجة إلى الكتاب، وإنما كانت حاجتها ماسة إلى قوة في الوطنية وجرأة في التضحية.

أما اليوم فإن القارئ مفتقر إلى سياسة البنيان، وهذه السياسة لا تقوم بها الوطنية وحدها أو التضحية وحدها وإنما تتم بالكتاب، فالدولة التي لا تكون مبنية على الكتاب، أي على العلم، إنما هي دولة ذاهب سلطانها، ورجال الدولة الذين لا يقرأون كتاباً إنما هم رجال عاجزون عن البنيان، فقد يكون واحدهم ماهراً في التهديم، ولكنه غير ماهر في البنيان؛ فإذا لم تلجأ الدولة إلى سياسة الكتاب في أعمالها فقد يفضي الأمر بها الى الخراب.

ليس عاراً على الدولة إذا كان رجالها غير علماء ولا ميالين إلى العلم أن يستعينوا بالعلماء، وإنما العار عليها أن يستمر هؤلاء

الرجال في كره العلم، لأن في هذا الكره قضاء على دولتهم وعلى البلاد، أما الدولة فإذا ذهب رجالها فقد يحل محلهم رجال آخرون وأما البلاد فإذ ذهبت فليس في الدنيا عوض عنها.

وقديماً لم يكره رجال الدولة في هذه البلاد العلم والعلماء، فقد مات في دمشق في أواخر القرن السادس ابن عساكر الدمشقي، أحد أئمة الحديث والعلم فحضر جنازته بالميدان والصلاة عليه الملك صلاح الدين الأيوبي نفسه؛ ففي خبر مثل هذا الخبر عبرتان، أنه يدل من جهة على أن رأس الدولة في تلك الأيام صلاح الدين الايوبي كان يعظم العلم والعلماء وأنه يدل من جهة ثانية على أن الفكرة العلمية في دمشق كانت هي المسيطرة على العقول، فإذا حضر صلاح الدين جنازة رجل مثل ابن عساكر فهذا معناه أنه كان يجاري طبقات الشعب في روحها العلمية.

فليس يقبل العقل أن يكون نصيب رجال الدولة في هذا العصر من العلم ،أقل من نصيب الذين حكموا هذه البلاد قبل ثمانية قرون.

وإذا كان الناس في هذه الأيام يميلون إلى سياسة الكتاب فإن ميلهم ناشئ عن علمهم بأن هذه السياسة هي التي تطعمهم وتغنيهم، فإذا لم يكن رجال الدولة أهل علم ومعرفة فلا خير للبلاد في دولتهم، وقد كان للكتاب في التأريخ سلطان لا يعدله سلطان، حدثت ثورات شتى وما كان مصدرها الرجل وحده، وإنما نشأت

الانقلابات عن الكتب، فهذه كتب سقراط في القديم و«الكوميديا الإلهية» في القرون الوسطى وكتب «روسو» من قرنين أدلة ناطقة على هذه الانقلابات.

فالعلم على نحو ما قال «رنان» إنما هو الوسيلة الوحيدة إلى تحسين حالة الناس، فإذا أردنا دولة مبنية على العلم فإنما نريدها لتحسين أوضاعنا بأجمعها، وسياسة الكتاب وحدها هي التي تضمن لنا هذا التحسين، أما الجهل فلم ينشئ أمة في عصر من العصور.

١٥ آيار ١٩٤٦